الاغتراب في شعر بشار بن برد

المدرس الدكتور

ياسين عذاب ناصـــــر

جامعة البصرة / كلية الآداب

الملخص:-

يعد الاغتراب أحد المفاهيم التي وجدت مداها في البحث الادبي على اعتبار ان الشاعر مغترب كبير ، ولهذا توجه البحث الى دراسة شاعر عاش مرحلة اغتراب ، زمانية ومكانية ونفسية ، تحولت الى اغتراب فني. اذ مثل هذا الاغتراب المكاني بدافع العمى وفقدان الشعور بالمكان المنظور الى تعويضات كانت تمثل واقعا شعريا مختلفا . في حين مثلت الغربة الزمانية هي الاخرى جانبا من شعر الشاعر وذلك من خلال المفارقة بين زمنين اموي / عباسي ناهيك عن ازمنة الشاعر الخاصة . وهذا التغلب تحول الى اغتراب فني في البحث عن تشكيلات شعرية جديدة لذا سمي بشار براس مدرسة البديع .

Alienation in Bashar Bin Burd's poetry

Lecturer. Dr. Yassen Naser

Basrah University / College of Arts

Abstract:

Alienation is a concept that occupies a privileged place in literary research since the poet is an aliented peronality. In the case of Bashar Bin Burd, he suffered from spatial and temporal alienation, which led to an artistic alienation. His blindness led to his alienation from any physical awareness of space. Besides, the change of the times from Umavids to Abasaids also caused him alienation from the time he was living in. this led to his artistic alienation, which was reflected in his crafting of new artistic forms, which is why he is considered as the father figure of new artistic forms.

المقدمة :-

الإغتراب مفهوم اخذ بعده الواسع في العصر الحديث، وكلما توغلنا في الزمن كلما وجدنا ان هذا المفهوم يزداد توسعا تبعا لتوسع الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية. ومع التوسع بالمفهوم يأتي التشعب افقيا ، وفي الوقت ذاته يمتد عموديا ،فعاد الدارسون بالاغتراب الى المراحل التاريخية السابقة والعصور الماضية،واخذوا يتفحصون تكوينات تلك العصور بمختلف ابعادها واشكالها وسبر اغوار ما يعانيه الانسان من غربة او اغتراب فيها.وهذا يعني انه كمفهوم حديث له اصوله وتداعياته القديمة ، بيد ان هذه الجذور تختلف من مجتمع لأخر ومن وسط لثان ومن زمن لا آخر ، بل ومن شخص لأخر.

يعرف بعضهم الاغتراب (بانه عملية صيرورة تتكون من ثلاث مراحل متصلة اتصالا وثيقا، فالمرحلة الاولى تتكون نتيجة لوضع الفرد في البناء الاجتماعي ، ويتدخل الفرد لوضعه في تشكيل المرحلة الثانية ، اما المرحلة الثالثة فتنعكس على تصرفه انسانا مغتربا على وفق الخيارات المتاحة امامه) [١].

وهذه المراحل الثلاث غالبا ما يمر بها الشاعر عموما ،مختارا او مجبرا وهي التي تدفع به الى عوالم من الابداع والتخيل وكلما استلهم وعيا جمعيا كلما استطاع ان يعبر عن مجال انساني اوسع حتى وان كان متحدثا عن اغتراب فردي لكنه بالضرورة ضمير جمعي يأخذ شكلا فرديا [٢].

واذا كان الشاعر يحمل ذلك الوعي الجمعي،فانه بالضرورة يحمل اقتراحات لحياة اسمى ليكون بديلا عن واقع او تأملا في الواقع [٣].

واذا سلمنا ان الاغتراب بالمعنى اللغوي هو الانفصال والابتعاد المكاني في جو روحي بخاصة مع لفظ الغربة ، فأننا نجد الظاهرة قديمة سبقت الوعي بها [٤] ، فهي ظاهرة تكاد تكون موجودة مع وجود الانسان في مكان معين اومجتمع معين (اما الاغتراب بوعي ، فيؤسس له افلاطون ، وفكره بذاته) يعد اول اغتراب واع عندما قسم العالم الى مطلق ومحدود...والمطلق هو عالم المثل ، والوجود هو عالم الظلال والصورة المشوشة . ثم

كانت جمهوريته تجسيدا لهذه الفكرة الأغترابية ، ولعل محنة العبقرية ومقتل استاذه سقراط كانا مع اسباب اخرى من بواعث اغترابه وبحثه عن المثال منفصلا عن الواقع)[٥].

وفي تراثنا العربي القديم هناك اشارات كثيرة لهذه الظاهرة ، ويبدوانَ من أهم من عانى منها وتحدث عنها كتجربة التوحيدي الذي يتجاوز الغربة المكانية الى الاغتراب الروحي والذاتي عندما لا يجعل الغربة المكانية هي المهمة (اغرب الغرباء من صار غريبا في وطنه)[٦] .

وهي تقترب كثيرا من مفهوم الاغتراب بمعناه الحديث الذي يأتي بأحد وجوهه هو عدم التكيف مع المحيط.

في حين راح الخطابي يسقط مفهوم الاغتراب على العزلة مسميا كتابه بها حيث يميز فيه بين نوعين من العزلة الاولى فكرية والثانية عزلة الاشخاص والأبدان ، ويريد بهما الافتراق ، وهو رديف الانفصال [٧] .

يمكن اعتبار هيجل الفيلسوف الاول الذي تحدث عن مصطلح الاغتراب باهتمام في كتابه (ظاهريات العقل الكلي) حينما تكلم عما اسماه بالبنية الاجتماعية التي تمثلها مفردات محيط الانسان ، وعن وظيفة الانسان اذْ اعطى هيجل الوعي والعقل اهمية كبيرة في تحقيق التوافق والانسجام مع البيئة الكلية للمحيط . فنراه يطلق (على حالة الانفصال التي تقع بين الفرد والمحيط الاجتماعي مصطلح الاغتراب ، ويشير ايضا الى التسليم والتخلي عن الا رادة الذاتية في سبيل التخلص من الاغتراب . حيث يمكن للفرد ان يغترب عن ذاته ويتخلى عن ارادته بعد ان يخرج منها بدافع الاغتراب عنها) [٨] ، وهذا يعني ان مفهوم الاغتراب يأخذ أبعادا عديدة : مرة في التوحد مع الذات ، ومرة في الابتعاد عنها.

وبذكر شاخت ان معنى الاغتراب (يكاد يجمع على ثلاثة معان الاول بمعنى نقل الملكية والثاني الاضطراب العقلي ، والثالث الغربة بين البشر) [٩].

من هنا يمكن ان ننظر الى عصر مثل العصر العباسي بما يمثله من صراعات فكرية وسياسية وثقافية ، بدا اكثر وضوحا مما كان عليه العصر الاموي المنغلق لذا نجد تيارات متقابلة ومتعاكسة ، ومتناظرة ومتداخلة ، اذ نجد الزهد الى جانب التحلل ، والاعتزال الى جانب التصوف ، وهي بطبيعة الحال تجعل الانسان يشعر بالقلق وسط امواج متلاطمة

من الفكر والثقافة والترجمة هذا بالاضافة الى ان الفرد في هذا العصر قد يغترب لاإراديا بفعل عوامل اجتماعية او فكرية.

الزمان والمكان:

ولابد اولا ان ننظر الى موقع الشاعر الزماني والمكاني ، والاجتماعي و الثقافي حتى ندرك مدى تفاعله مع محيطه ، لنعرف مدى عمق الاغتراب الذي يشعر به.

ان غربة بشار الاولى زمكانية ، بمعنى ان الزمان مع المكان قد اسهما الى حد بعيد في تكوينه الذاتي . فهو من اصل فارسي وابوه من سبي المهلب بن ابي صفرة [١٠] وهي بلا شك عزلة مكانية ، ويبدو انها ، قد عمقت الشعور المتواصل بالاغتراب ، اذا ما عرفنا ان بشارا يعتقد انه يرجع بأصله الى الاكاسرة ، بمعنى انه كان يشعر انه يعيش بوضع لا يتناسب مع علو أصله الفارسي.

ولأنه عاش في بداية حياته في الفترة الاموية التي كانت تزدري غير العربي وتنظر اليه بنظرة التهوين والتحقير عندئذ سوف يتبدى لنا موقفان شعريان نتيجة لهذا الاغتراب.الاول مدح العرب ومحاولة الالتصاق بما هو عربي ،والثاني التفاخر بما هو عربي،لأنه يحاول ان يتخفى بهذا المديح وبهذا التفاخر كمحاولة منه للتماهي مع المجتمع العربي ، ولكن ، ولكي يبدو الاغتراب امرا طبيعيا فهو يحاول ان يندمج مع الفضاءات العربية ،ومحاولة التعايش معها ، لكنه لا يلبث ان يفصح عن عدم قناعته بهذا الاندماج عندما يهجو العرب : [١١]

اصبحت مولى ذي الاجلال وانما مولى العريب فخذ بفضلك وافتخر
مولاك اكرم من تميم كلهـا اهل الفعـال ومن قريش المعشر
فارجع الى مولاك غير مدافـع سبحـان مولاك الاجل الاكبر

ان هذا الانتقال الخطير بين عصرين هما الاموي ذو الطابع العربي ، والعصر العباسي ذو الطابع الاجنبي قد جعل بشار يحاول ان يكسر اطواق القيود التي كانت تكبله (وهو بهذا يصور لنا انتقالا خطير في حياة الموالي في الحياة الاسلامية بوجه عام ، فقد اصبح للفرد قيمة في المجتمع مهما كان منشؤه ، ولم يعد يحتاج الى ان يحتمي بمن يواليه من

القبائل حتى لا يستضعف. فيناله من الاخرين ما يكره ، وهذه مزية من مزايا التحول الذي اصاب الحياة الاجتماعية في العصر العباسي) [١٢] ، وهي انتقاله لم تكن الاردة فعل لما كان يشعر به بشار من اغتراب مكاني وزماني ايام الاموية ،عندما كان يرسخ اقدامه في ارض الشعر المزدحمة بالشعراء الكبار (اذ سرعان ما حدثته نفسه بان موضعه ليس في صفوف المشاهدين والمتفرجين على مسرح البصرة، بل حقه ان يكون مع الممثلين الذين يلعبون الادوار البدوية لأنه ليس باقل منهم اتقانا للأدوار التي يمثلونها وماتزال نفسه تمتلئ بالقوة والشجاعة حتى يبرح مكانه ليشترك مع جرير في تمثيل دور رئيسي طلبا للشهرة والمجد ،غير أن جريرا اعرض عنه) [١٣] .

ان طبيعة النقائض التي شغلت فترة كبيرة في العصر الاموي ما هي الا مسرح غير مكتمل ، وهي تجربة تجذب بشارا لها هو الباحث عن طالعه في مسرح عدته الاولى المكان حتى يمتحن نفسه وقدرته ، ويقدم بالتالي نفسه كشاعر في زمن يكاد المكان يضيق الالجرير والفرزدق والاخطل والراعي النميري. هنا بشار بحث عن موقعه المكاني.

ولعل بشارا قد لاقى من التهوين ما جعله يشعر بغربة اجتماعية كبيرة جدا في فترة مبكرة من حياته عندما (كان بشار وامه لرجل من الازد، فتزوج امرأة من بني عقيل فساق بشارا وامه في صداقها) [١٤] .

ويبدو ان بشارا واجه امرا اخر، يقول صاحب الاغاني : باعت ام بشار بشارا على ام الظباء السندوسية بدينارين ، فأعتقته ام الظباء السندوسية ، وام الظباء امرأة اوس بن ثعلبة احد بني تيم اللات بن ثعلبة ، وهو صاحب قصر اوس بالبصرة [١٥]

ومثل هذه المواقف كانت تجد صداها في حياة بشار تظهر هذه في تلك الالوان المتذبذبة بين العربية والفارسية قال(لما دخلت على المهدي قال لي : فيمن تعتد يا بشار فقلت : اما اللسان والزي فعربيان ، واما الاصل فعجمي كما قلت في شعري }[١٦]

ونبئت قوماً بهم جنـةٌ يقولون من ذا وكنت العلـم

ألا أيها السائلي جاهـدا ليعرفني انا انف الكــرم

نمت في الكرام بني عامر فروعي واصلي قريش العجم

فاني لأغني مقام الفتى وأصبي الفتاة فما تعتصم.

ان الاغتراب هنا يظهر بهذا التفاخر الذي يحاول ان يستخلص منه ما هو وقاية له من الانتقاص ، فهو يرمي القوم الذين ينظرون اليه نظرة التجاهل بالجنون ،ثم يشرع في توكيد ذاته من خلال الفخر المتعاظم ،انه يغترب عن الواقع الى افاق الفن والشعر وهنا تحضر ذاته الشعرية كمعادل لذاته المستلبة في الواقع ، وهو يحاول ان يمسك المجد من طرفيه العربي والفارسي.فهو تربى في الاجواء العربية واصله فارسي ويأخذ الإغتراب مداه الاوسع حين يجعل نفسه موازياً لأمرئ القيس بتناص ظاهر (لاغني مقام الفتى ، واصبي الفتاة فما تعتصم ، فهو يذكرنا بقول امرئ القيس :

لقد اصبي على المريء عرسه.. وامنع عرسي ان يزن بها الخالي

هناك مظهر اخر للاغتراب عند بشار ،وهو كثرة التلون والتغير والتعصب للعجم كما يصفه صاحب الاغاني ،فمرة يفتخر بولائه في قيس بقوله [١٧]

امنتُ مضرة الفحشاء اني ارى قيسا تضر ولاتضار

كأن الناس حيث تغيب عنهم نبات الارض اخطأه الخضار

وقد كانت تدمر خيل قيس فكان لتدمر فيها دمار

وما نلقاهم الاصدرنا بريٍ منهم وهم حرار

ويستغرب صاحب الاغاني من هذا التذبذب [١٨] حيث يمدح العرب مرة ويهجوهم مرة اخرى [١٩].

اصبحت مولى ذي الاجلال وبعضهم مولى العريب فخذ بفضلك وافتخر

مولاك اكرم من تميم كلها اهل الفعال ومن قريش المشعر

فارجع الى مولاك غير مدافع سبحان مولاك الاجل الاكبر

ثم يعود ليفتخر بني عقيل : [٢٠]

انني من عقيل بن كعب موضع السيف من طلا الاعناق

وما هذا التراوح بين مديح العرب وهجائهم ، ما هو الا عدم انسجام مع المجتمع العربي من جهة وعدم انسجام مع المكان الذي يعيش فيه ،انه اغتراب الذات عن محيطها ، فهي

تعلن عملية رفض مرة وقبولا مرة اخرى ،وهي بهذا تؤشر الى مدى الاغتراب الذي يبدو بينها وبين المجتمع والمكان ، وما هذا المديح الا بدافع التكسب ، بينما الهجاء في كثير من وجوهه اقرب الى ذات بشار المغتربة عن الاخرين ، والباحثة عن كينونتها بشتى الاشكال.

هناك ملمح اخر دفع لهذا الاغتراب، وهو التذبذب بين البداوة والحضارة ، بل والتعصب لهما احيانا وهذا التوليف بين وجهين من وجوه الحياة بين رفض وقبول وانسجام وتنافر ،ما هو الا صورة من صور الاغتراب عن الواقع احيانا ، واحيانا عن الذات التي اصبحت مفارقة لواقعها لتأتلف مع جانب منه ثم لا تلبث ان تنسجم مع جانب اخر وتترك الاول.وهذا الاغتراب هو اغتراب الشاعر عموما ،واغتراب بشار الخاص يأخذ بعده بشكل مضخم (فالشعر ناتج انساني داخلي معقد ومدهش حقا ذلك لان صانعه قد لا يمتلك من الوسائل المادية اكثر مما يملك اغلب الناس من ابناء عصره وقد لا يعرف من الحقائق اوفى مما يعرفون ،لكنه حين يؤلف بين هذه وتلك ينشئ قولا فذا ، لا يستطيعه غيره...

اعتقد ان التميز الذي يمتلكه الشاعر يمكن ان يتمثل في قوة مفرطة في الاحساس ..بصيرة نافذة في الاحساس) [٢١] ولعل هذا هو ما اشتملت عليه شخصية بشار حساسية مفرطة وردة فعل سريعة لذا اصبح التعايش مع ما هو بدوي ومع ماهو حضري يأتي بحساسية الشاعر المفرطة. لذا ترى رده قويا عندما ادعى عقبة بن رؤبة بن العجاج بانه لا يجيد فن الرجز فقال بشار: انا ارجز منك ومن ابيك و من جدك.ثم انشد ارجوزته [٢٢]

يا طلل الحي بذات الصمـد بالله خبر كيف كنت بعدي

اوحشت من دعد وترب رعد بعد زمان ناعم ومـود

عهدا لنا سقيا له من عهـد اذ نحن اضياف بما تؤدي

ولو عدنا الى جذور هذا الاغتراب ومحاولة اثبات الذات شعرا فهذا ما حصل له من احداث عاشها فهو منذ البداية (سرعان ما حدثته نفسه بان موضعه ليس في صفوف المشاهدين او المتفرجين على مسرح البصرة بل حقه ان يكون من الممثلين الذين يلعبون الادوار البدوية ،لأنه ليس بأقل منهم اتقانا للأدوار التي يمثلونها ، وما تزال نفسه تمتلئ

بالقوة والشجاعة حتى يبرح مكانه ليشترك مع جرير في تمثيل دور رئيس طلبا للشهرة والمجد غير ان جريرا اعرض عنه) [٢٤]

وهذه الحادثة كانت بالغة الاثر في نفسية بشار ، ولهذا راح يستثمر هذا الاغتراب وعدم الانسجام والرفض من الواقع الى فهم على الشعر قراءة وحفظا (فقد تفتحت ملكته الشعرية وانفتح اسلوبه واستوت له صورة وتكاملت خصائص فنه في عهد بني امية عهد البداوة والاعرابية) [٢٤].

وهذا ما ينطبق ايضا على جانب اخر هو الجانب الحضري ، (ومعنى ذلك ان الجانب الحضري من فنه لا يقل اهمية عن الجانب البدوي فانه افاد من محاورات المتكلمين ومجادلاتهم ، وعرف كيف يشقق المعاني ويترقق في الكلام ويتبسط فيه حد استعماله بعض العبارات الشعبية) [٢٥] .

يقول في مقدمة احدى قصائده :

سلم على الدار بذي تنضب فشط حوضى فلوي قعنب

واستوقف الركب على رسمها بل حل بالرسم ولا تركب

لما عرفناها جرى دمعه ما بعد دمع العانس الاشيب

(وعلى هذا النحو كان بشار بفيد من تراث الاسلاف ويعتمد عليه غير انه لم ينسخ ولاسلخ اخيلته سلخا ، بل طوعه واضفى عليه من دقائق فكره ولطف اخيلته ما طبعه بطوابع خاصة هي طوابعه الشخصية وطوابع بيئته الحضرية ، بحيث يغاير الاصل ، ويختلف عنه وبحيث يكون سلكا له ووفقا عليه) [٢٧] ، وما هذا اللجوء الى التراث ومحاولة سبر اغواره والخروج بنمط هجين من العلاقات العربية الفارسية ومن القديم والجديد ما هو الا تعبير عن اغتراب الذات عن المجتمع والاخر ومواءمة نفسها داخل الفن الذي كون صورة بشار الادبية المفارقة لصورته في الواقع.

فالصورة العامة (لفن بشار بن برد انه مزج من العناصر البدوية القديمة والعناصر الحضرية الجديدة ، اذ أتاحت له حياته التي سلخ شطرها الاول في ايام بني امية وشطرها

الاخير في ايام بني العباس ان يعيش في بيئتين مختلفتين ويكون بذلك اخر القدماء واول المحدثين) [٢٨] .

العمى:

عامل اخر اسهم في تعميق الاغتراب في نفسية بشار هو العمى ، مع دمامة الوجه وقبحه [٢٩] . هذا اذا ما عرفنا ان بشارا ذا حساسية مفرطة ، ويمتلك روحية عدوانية احيانا تجعله يستخدم كل آليات الدفاع عن النفس ، لادركنا مدى ما تركه العمى من تأثير سيء على فنه مما جعله ينفر من الاخرين بالسرعة نفسها التي يأتلف بها معهم [٣٠] وهذا التنافر مع الاخرين ولد انسجاما مع الذات التي اهتم بها لدرجة النرجسية [٣١] .

عميت جنينا والذكاء من العمى فجئت عجيب الظن للعلم مرئلا

وغاض ضياء العين للعلم رافدا لقلب اذا ما ضيع الناس حصلا

والبحث ليس بصدد بيان مدى تأثير فقدان البصر في الشعر لان هذه مسالة كتب فيها كثيرا ،بل ان بشارا نفسه تنبه الى مدى تأثير العمى على حياته لذا راح يجري مقارنات بينه وبين المبصرين ، ويثبت بانه لا يقل شانا عنهم .لكن غاية البحث ان يتجه الى الاغتراب واحدى عوامله هنا هو العمى.انه عدم الانسجام الذي يدفع اليه اوان العمى فرصة للتوحد مع الذات ، والاغتراب عن العالم والمجتمع والاخر (ومما لاشك فيه ان حاسة البصر هي التي تخلق الخيال ،اما الحواس الاخرى فأنها لن تستطيع ان تخلق خيالا مشابها للخيال القائم على الرؤية البصرية ، اما الخيال الذي ينتج عن واقع الاكمة فيمكن تسميته بالخيال الوهمي وهو خيال بعيد عن الخيال البصري المرئي) [٣٢].

على هذا يبدو ان فقدان البصر الذي يؤدي الى فقدان معظم التواصل مع العالم المرئي ينتهي الى الاغتراب مع الواقع ، والتفاعل والركون الى الذات (فالخيال عند الاكمه اذ يعيد الصور البصرية ، التي نفتقدها ، ولكنه يستطيع ان يدعم حواسه الباحثة بكل خبراته واطلاعه واحتكاكه وتكوينه النفسي ، وبنائه الاجتماعي ،فهل تستقبل ما سبق من موهبته الفطرية التي ينصهر في بوتقتها كل مقومات الشعر وادواته) [٣٣] انها غربته الاجبارية التي تنتهي الى اغتراب الذات واستسلامها يقول : [٣٤] .

يا طول هذا الليل لم ارقـد إلا رقاد الوصب الارمـد

مثل اكتحال العين نومي به بل دون كحل العين بالمرود

ان الاحساس بالزمن الثقيل غدا اشبه ما يكون بالكابوس لأنه يعيش في ليل مستمر حتى ان النوم به لم يكن إلا لحظات معدودة انه الخوف وعدم الاستقرار والبحث الدائم عن الخلاص يقول: (٣٥)

ابيت وعيني بالدموع رهينــة واصبح صبا والفــؤاد كئيب

اذا نطق القوم الجلوس فإننـي اكب كأني من هــواك غريب

يقولون داء القلب جن اصابــه ودائي غزال ،في الحجاب ربيب

اذا شئت هاج الشوق واقتاده الهوى اليك من الريح الجنوب جنـوب

هوى صاحبي ريح الشمال اذاجرت واهوى لقلبي ان تهب جنـوب

وماذاك الاانها حين تنتهــي تناهى وفيها من عبيدة طيـب

ان شعرية الحجب الذي يسببه العمى تدفعه الى اغتراب مزدوج ، الشك ، والهواجس والهموم ، انه يعيش تحت وطأة الحزن الدائم،ويستمر هذا الاغتراب حتى اذا حضر القوم فانه يعيش اغترابا اخر هو عدم يقينه ما يدور حوله انها عزلة اجبارية اختيارية ، ولكي تؤكد انها عزلة الاختيار فهو متنبه الى ما يقوله هؤلاء القوم ، ونعته بالجنون فيبدو انه يركن الى عزلته التي يطمئن اليها مع المرأة التي تسكن في داخله.ويبدو ان هذا الركون للذات مع فقد البصر قد جعله يعتمد على معطيات السمع والذوق واللمس والخيال .فقد لاحظ الدكتور زكي محاسني في احدى صور بشار خياليا اريا فارسيا ، استدل عليه بشيئين ، فكرة التجرد الفلسفية ، وهي خروج الانسان من ريحانة او تفاحة يقول : (٣٦)

يا ليتني كنت تفاحـا مفلجة او كنت في قضب الريحان ريحانا

حتى اذا وجدت ريحي فاعجبها ونحن في خلوة مثلت انسانـا

ويبدو ان هذا البحث عن خلاص من هم مستمر يجعله يلجا الى الحوار الداخلي (٣٧)

تحدث من كفيك في كل ليلة الى ان ترى وجه الصباح وساد

وهذا الانطواء على الذات يجعله ينظر الى اغترابه بوعي (٣٨)

ان التي راحت مودتهـا رغما علي فبت مكتئبـا

حوراء لووهب الاله لنـا منها الصفاء لجل ما وهبا

خلقت مباعدة مقاربــة حرباو.....صورة عجبـا

كالشمس إنْ برقت مجايدها تحكي لنا الياقوت والذهبا

ثم نرى مرة اخرى وبلا وعي يدلي بهذا الارتياح الى السماع [٣٩]

وذات دل كان البدر صورتها باتت تغني عميد القلب سكرانا

ولأنه يدخل عوالم من التخييل لذا راح يوهم نفسه ، بل يوهم المتلقي من خلال نسيج مغامرات وقصص يكون البطل الاول فيها وهذا التخييل ما هو الا تعويض عن حلم مفقود في الواقع ، فلعله تحقق بالخيال والوهم ، فهو يلفق قصصا لا يستطيع المبصر على القيام بها فكيف بالبصير لننظر في قصيدته الاولى ذات التكوين السردي الذي يظهر بشكل جلي وواضح حالة الاغتراب مع الواقع والركون الى الذات : [٤٠] .

ذات عشر وثلاث قسمت بين غصن وكثيب وقمر

ثم مقطوعته :

قد لامني في خليلتي عُمر واللومُ في غيركنهه ضجرُ

وهذا يعني ان هذا الاغتراب كان عاملا مساعدا على التماهي مع عوالم شعرية بعيدة ومبتكرة. ويبدو ان هذه العوامل تعضدها عوامل خارجية،فقد ولد ذهابه الى مذهب الاعتزال قدرة على التواصل الفكري لذا (فان اطلاعه كما نرى لم يحدث شكا وحيرة وبلبة في الفكر بقدر ما اوجد عنده عمقا في التفكير ، وبعدا في الادراك ،وملكة على التذوق والتحليل .

ولعل اختلاطه بالمعتزلة ومصاحبته لهم في فترة من فترات حياته يشكل مصدرا من اهم مصادر ثقافته ، فقد خالط علماء الكلام في البصرة ، وكان واحدا من سته منهم) [٤١]

ولعل هذا اسهم الى حد بعيد في ان يكون مفترقا عن الواقع من جهة ومنسجما مع واقع اخر هو واقع العلم والثقافة والادب .لقد(اطلع بشار على ما ترجم من آداب الفرس وغيرها

وعلى آداب المذاهب القديمة كالمزدكية والمانوية) [٤٢] ، لهذا يرى الدكتور شوقي ضيف (ان اطلاعه على المذاهب المختلفة احدث هزة في نفسه وملأها بالشك والحيرة) [٤٣] .

الاغتراب الفني

لعبت عوامل عدة في تكوين الاغتراب الفني عند بشار فقد كان رأس الشعراء المولدين الباحثين عن تغيرات كبرى في الشعر العربي ،وهذا يمكن ان يشكل اغترابا يفضي الى اثر فني يمكن ان نسميه الاغتراب الفني ، وهذا بطبيعة الحال يتصل بجانبين الاول طبيعة العصر العباسي الثقافية والفكرية،والتي من محصلتها تغير في ميدان الشعر ،وهذا التغير ما هو إلّا صدى لاضطرابات فكرية وثقافية ولدت تيارا تجديديا عرف بالشعراء المولدين ولعل طبيعة الانفتاح الثقافي والفكري التي حتمها المجتمع العباسي المنفتح هي التي اسهمت في هذا فنحن نرى بشارا يلجأ الى التعبير المكشوف في صوره كثيرا،وقد يكون امرؤ القيس هو الذي فتح باب الغزل المكشوف ،فاثر فيمن بعد من الشعراء لكن الحضارة بما فيها من ترف ووسائل متعة دفعت الشعراء الى هذا اللون فزاد عليه زيادة لم تكن في القديم [٤٥] .

ولاشك ان وسائل المتعة هذه واجواء الانفتاح اسهمت في ايجاد روح التجديد ودفعت ببشارا الى اغتراب فني مرده التكثيف من الاداء القصصي والشعري الذي رأى انه يتلاءم وطبيعة العصر مما دفع بالخلافة العباسية الى ملاحقته اينما حل ، ومن النماذج الابرز في هذا قصيدته الرائية : [٤٦]

قد لامني في خليلتي عمر واللوم في غير كنهه ضجر
قال: افق قلت :لافقال: بلى قد شاع في الناس منكما خبر

ورائيته الاخرى : [٤٧]

عجبت فطمة من نعتي لها هل يجيد النعت مكفوف البصر
بنت عشر وثلاث قسمت بين غصن وكثيب وقمر

وهو يصف حوادث فيها اغواء للنساء ،وتحريض على المتعة واللذة العابرة التي تدفعه الى السلوك الفني الأغترابي ، لكنه يُجسد هذه المرة في الفن الشعري.

ومن خلال هذه المعاناة وغيرها تجعله يسلك الى ماهو بعيد في الفن .وهو البصير والذي يعيش في غربة دائمة ، لذا تشتغل الحواس الاخرى لتجسد هذا الاغتراب الشعري بقول : [٤٨]

ارى سقمي يزداد من ام مالك ولوذقت يوما ريقها لبريت

اظل كأني شارب سُم حية ويعتادني الوسواس حيث ابيت

ظمئت فلم اظمأ الى برد مشرب ولكن الى وجه الحبيب ظميت

واذا كان بشار ليس الشاعر الاول الذي يصف الحب بالسقم ،الا انه يلبسه ثوبا جديدا من ابتكاراته النفسية من خلال تراسل الحواس [٤٩] .

يقول:

وحوراء المدامع من معد كأن حديثها تمر الجنان

اذا قامت لسبحتها تثنت كأن عظامها من خيزران

وهو هنا يؤكد ذات الشأن ، وهو فاعلية الفن وفاعلية الصورة التي عكف الشاعر العباسي على ان يبتكر فيها ، ولان بشارا يتسابق مع الشعراء الاخرين في الابتكار والاتيان بما يبدع فانه يركن الى عواطفه وأحاسيسه ، بل الى اغترابه الذي مثل فرصة مثلى في تكوين صورة تبادل الحواس [٥٠] عندما يتحول الحديث المسموع الى طعم مذاق ثمر الجنان ومن ثم يسعفه خياله الثر الجامح ليلاحق تفاصيل الصورة الحركية، التي تعد اكثر الصور فاعلية في العصر العباسي ، انه يصف قيامها المتثاقل بالصورة التي تشبع غريزته لان عظامها من خيزران.

ثمة مظهر اخر للاغتراب الفني في شعر بشار ،ألا هو الاغتراب الفني البديعي ،وقد تمثل بانتماء بشار توجها وسلوكا وتمثلا شعريا لمدرسة البديع والابتكار التي انعرجت بالشعر نحو افاق جديدة من الابداع ، ولعل خصوصية بشار الذاتية والنفسية قد جعلته يوظف قدراته الفنية ، وان يتجه الى خلق انماط جديدة من الصور الشعرية ، أو محاولة الانحراف بالشعر الى مسارات جديدة ،وهو ولاشك اغتراب فني ، اي بحث او جزء من بحث بشار الدائم والمستمر عما يشبع هذه الذات الباحثة عن التفرد ، والتي تنفصل عن المجتمع لتجد ضالتها في الفن ، فبشار الذي يهيم اعجابا بأبيات ابي العتاهية [٥١] في الممدوح:

اتته الخلافة منقـادة اليه تجرجر اذيالها

فما هذا الاعجاب ، إلا مظهر من مظاهر التوق الى خلق عالم جمالي على انقاض العالم الواقع ، وكأنه يخص عالم المُثل الفني . وعندما انشد قصيدته : [٥٢]

بكرا صاحبي قبل الهجير ان ذاك النجاح في التبكير

فاعترض عليه خلف بن ابي عمرو بن العلاء بقوله يا اب معاذ لو قلت (بكرا فالنجاح في التبكير) كان احسن رد بشار: بنيتها اعرابية.

انها اغتراب الذات باتجاه الفن ، والإخلاص له والانتماء والتواصل مع مشروعة الابداعي . انه بالنسبة اليه يمثل الحقيقة المطلقة ، والواحة التي تطمئن نفسه في داخلها، ولعل هذا الحرص هو من جعله يدق الابواب الجديدة.

كان الهاجس الذي ما برح يقض مضجع بشار هو الهاجس الفني الذي يزداد رسوخا كلما ابتعد عن تناقضات الاخرين ، بل وازدراء الاخرين له.وهكذا نجده يرد بعنف وقوة على عقبة بن رؤبة عندما نعته بانه لايجيد فن الاراجيز بقوله (هذا فن انت لا تحسنه يا ابا معاذ ، فقال انا ارجز منك ومن ابيك وجدك) [٥٣] ثم انشد ارجوزته الشهيرة : [٥٤]

يا طلل الحي بذات الصمـد با لله خبر كيف كنت بعدي

هذان الدليلان بالإضافة الى ادلة اخرى تؤكد ان بشارا كان دائب الغربة باتجاه الاغتراب الى الفن وفي الفن ، والى الشعر تحديدا. فالنقاد يقفون طويلا عند قول بشار: [٥٥]

كأن مُثار النقع فوق رؤوسنا واسيافنا ليل تهاوى كواكبه

يقفون متسائلين كيف ينتج بشار مثل هكذا صورة،وهو لم ير الواقع قط.انها بالتأكيد نتاج الاغتراب عن الواقع الى الفن [٥٦] انه الفضاء الذي يجد فيه ذاته تتحقق ، وهذا يعني ان الاغتراب عملية صيرورة تتكون من ثلاث مراحل متصلة اتصالا وثيقا ، فالمرحلة الاولى تتكون نتيجة لوضع الفرد في البناء الاجتماعي.ويتدخل وعي الفرد لوصفه في تشكيل المرحلة الثانية

اما المرحلة الثالثة فتنعكس على تصرفه انسانا مغتربا على وفق الخيارات المتاحة [٥٧] .

ولعل هذا الاغتراب الفني يبلغ مداه حين يتشكل على وفق معطيات فنية ، لعل تراسل الحواس واحد منها ، وهذا لا يعني ان تراسل الحواس المظهر الوحيد لهذا الاغتراب الفني،

ولكنه الابرز ، لأنه يعلن عن مقدرة بشار الفنية ، على اعتبار ان (عملية تحويل الذات الشاعرة الى موضوع يمكن ان يحتويها مصطلحان فنيان يتساندان ويتكاملان في بناء النص الشعري ،هما الصورة والايقاع ، اما الصورة ففيها تندغم الرؤى بالأشياء في شكل الايحاء المتحفز والحاضر معا وقد وصفت بأنها القادرة على ان تمنح شكل معينا لحالات الفكر ،بل لكل ما يحس به الشاعر من تداخل بين الفكر والعاطفة) وبشار توفرت مخيلته على وفرة من الصور التي حولها بإحساسه [٥٨] وفكرة الى انتاج فني متقن يقول:

جرى دمعي فاخبرعن ضمير كجاري المسك دل عليه نفح

فالدموع تتحدث بالسر الدفين بين جوانح الشاعر (ولو نظرنا الى المقابلة بين شطري البيت ، لوجدنا ان الشاعر جعل حديث العيون في مقابلة حاسة الشم) [٥٩] .

الا ان ابرز صورة لتراسل الحواس عند بشار يأتي عن طريق السمع [٦٠] .

فقبل دموع عينك خبرتنا بما جمجمت زفرتك الصعود

(ولعل تعويل بشار على السمع في غياب البصر سبيلا للارتقاء بالعالم الخارجي ، وأدراك ما فيه ، والتواصل مع مصادر الالهام عنده ، وراء تلك العناية بوصف القيان ، وخاصة تأثير الغناء في الاسماع والافئدة والعقول) [٦١] فهو يقول في وصف واحدة منهن [٦٢] .

يقــول:

حسدت عليها كل شيء يمسها وما كنت لولا حبها بحسود

كأن اميرا جالسا في ثيابهـا تؤمن رؤياه عيـون وفود

ولعل هذا الاغتراب الاكثر ملاءمة لذات بشار التي تعمل على السمع المرهف ، والشعر العربي القديم كان فنا زمانيا [٦٣] يعتمد على الانشاد وهو بهذا اغنى ذات بشار الباحثة عن فرصة للظهور فكانت القصيدة والشعر خير ما يمثل هذه الذات (فالقصيدة العربية بارتكازها الى نظامي الشطرين استندت الى نظام شكلي صارم يعتمد على الانشاد ولتحديد الوقفات عند نهاية كل شطر بالإضافة الى القافية وترددها المتواتر في مكان وزمان ثابت ، فالبيت يمثل دورة إنشاديه مغلقة ، وهذا التوجه الانشادي الشفوي يجعل الشعر مرتبطا بحيز المدى الزمني ، ويغيب المدى المكاني والتشكيل البصري [٦٤] .

الخاتمـــــــــة :

الاغتراب مفهوم النفس يساور ويعتري الانسان بشكل عام والشاعر بشكل خاص،وبشار كان اكثر شاعر في العصر العباسي عرضة لذلك .فقد كان ارضاء خصبة لكثير من بذور الاغتراب التي سادت عصرين من اهم عصور الادب العربي ..

فقد كان بشار يعاني اغترابا متعدد المستويات ،على اعتبار ان الاغتراب عدم انسجام يبدأ مع الاخر ومع المحيط والعائلة وقد يصل الى ان يكون عدم انسجام مع النفس،لكنه عند بشار مثل موقفا من الحياة ومن الاخرين ومن ثم تقاربا وتماهيا مع النفس والذات.

مثلت غربة بشار الزمانية والمكانية مظهرا عنده ، وقد تمثل هذا بمظهرين برزا في شعره انفصالا واندماجا..

فقد كان الانتقال بين عصرين هما الاموي والعباسي، الاول بوجهه العربي الخلص الى حد التعصب ، والثاني الانفتاح الى حد ضياع الهوية ممثلا اغترابا زمانيا . في حين مثل الجذر الذي يقي داخل بشار في انه من اسرة فارسية وعيشه في مجتمع مواليا مثل هو الاخر اغترابا مكانيا.

المظهر الثاني لاغتراب بشار تمثل في شعره كان مرده العمى على اعتبار ان بشارا ولد اعمى مما اسهم في ان يكون ذا حساسية مفرطة ومن ثم توجهه الى التعويض بمختلف اشاكله السمعية والشمية واللمس واعتماده على الخيال والتصور اكثر من البص . بالاضافة الى انه تحول مفرط الحساسية من خلال شعوره بالليل كمعادل للعمى ..

المظهر الاخر لاغترابه هو بحثه عن اغتراب فني وكأنه وجد ان استغلال حاله الاغتراب لابد ان يستثمر فنيا بيد انه توجه الى استثمار فني تجديدي عندما توجه الى انماط من البديع واستخدام اللغة وبلاغة التعبير حتى يقدم انماطا من الادهاش كان على اثرها يتبوأ رأس مدرسه البديع ،والتي فتحت الباب واسعا لمن جاء بعده .وهذا يعني ان الاغتراب كان تسلسلا طبيعيا لما مر به بشار من اقدار وتقلبات في حياته تدرجت حتى وصلت الى اغتراب فني ..

الهوامش

١ - غربة المثقف العربي / حليم بركات / مجلة المستقبل العربي ٢٤تموز ١٩٧٨ص.١٠٦

٢ - ينظر الاغتراب في شعر العصر العباسي في القرن الرابع الهجري سميرة السلامي ص.١٠٠

٣ - ينظر الاغتراب في شعر ما بعد الرواد .علي مجيد .١٨

٤ - تحول المثال ، دراسة الظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي ١٢ .

٥ - السابق ١٢- .١٣

٦ - الاشارات الالهيه ، التوحيدي ٨١ ، ابوحيان التوحيدي ت عبد الرحمن بدوي ، وكالة المطبوعات الكويتية دار العلم ، بيروت ، ط١ ،.١٩٨١

٧ - ألعزلة الخطابي ص١١.تحول المثال ،١١السابق ص.١٨

٨ - السابق ٦٢./٤

٩ - الاغتراب ريتشارد شاخت.

١٠ - الاغاني ١٣٦./٣

١١ - الديوان ٦./٤

١٢ - الشعر في بغداد .١٤٣

١٣ - مقدمة القصيدة في العصر العباسي الاول د .حسين عطوان ص.٥١

١٤ - الاغاني ١٣٧./٣

١٥ - ينظر الاغاني ١٣٧./٣

١٦ - الاغاني١٣٨/٣و الديوان١٥٦./٤

١٧ - الديوان ٢٥٠./٣

١٨ - الاغاني ١٣٩./٣

١٩ - الديوان ٦٢./٤

٢٠ - الديوان ٥٢/٣ .

٢١ - ينظر سوسيولوجيا الاغتراب ، قراءة نقدية منهجية في فلسفة الاغتراب ص ١٤-.١٥

٢٢ - الديوان ٢١٩./٢

٢٣ - مقدمة القصيدة ٥١ وينظر الاغاني ١٤٣./٣

٢٤ - مقدمة القصيدة العربية .٥١

٢٥ - الساب٥٣-٥٤

٢٦ - الديوان ١٤٥./١

٢٧ - مقدمة القصيدة .٦٥

٢٨ - السابق .٥١

٢٩ - الاغاني ١٤١./٣

٣٠ - الاغاني ١٤١./٣

٣١ - الديوان ١٣٦./٤

٣٢- شعر العميان .٣٤

٣٣ - السابق .٣٥

٣٤ - الديوان ١٧٠./٢

٣٥ - الديوان ١٧٩./١

٣٦ - الديوان وينظر٥١/٤-٥٢.

٣٧ - الديوان ١٣٥./٣

٣٨ - الديوان ٢٥/٢

٣٩ - الديوان ١٩٤./٤

٤٠ - الديوان ٦٨./٤

٤١- الصورة في شعر بشار.٣٩

٤٢ - السابق ٣٩..

٤٣- تاريخ الادب العربي ،العصر العباسي الاول،شوقي ضيف.٢٠٧

٤٤ - الديوان٤/.٧٨

٤٥ - ينظر الصورة في شعر بشار.١١٢

٤٦ - الديوان ١٦٩/٣-١٧٠.

٤٧ - الديوان ٦٨./٤

٤٨ - الديوان٢/.٣٩

٤٩ - الديوان ٦٥/٤

٥٠ - ينظر تراسل الحواس في الشعر العربي /ص٥١

٥١ - ينظر الاغاني ،وديوان ابي العتاهية.

٥٢ - الديوان، وينظر الاغاني.

٥٣ - الاغاني.

٥٤ - الديوان ٢/٢١٩.

٥٥ - السابق١/٣١٨.

٥٦ - ينظر الاغتراب في شعر المعري.

٥٧ - غربة المثقف العربي ،حليم بركات،مجلة المستقبل العربي،ع٢،تموز ١٩٧٨،١٠٦.

٥٨ - الديوان٢/١٤٥.

٥٩ - تراسل الحواس،.٩٨

٦٠ – الديوان

٦١ - القيان والشعر في العصر العباسي.١٢٥

٦٢ - الديوان ٢/١٥٨.

٦٣ - الشعرية العربية اودونيس،١٢-١٣

٦٤ - ينظر كتاب المنزلات،منزلة القراءة،٤٣،والشعر الجاهلي ،قضاياه الموضوعية والفنية٩٢.

مصادر البحث ومراجعه :

١ - الاشارات الالهية ،ابو حيان التوحيدي تح د. عبد الرحمن بدوي ،وكالة المطبوعات ،دار العلم بيروت ط١ .١٩٨١

٢ - الاغاني . ابوالفرج الاصفهاني ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مصر، دت ، د ط.

٣ - الاغتراب في شعر العصر العباسي ،القرن الرابع الهجري ، د. سميرة سلامي ،دار الينابيع دمشق ط .٢٠٠١

٤ - الاغتراب في شعر ما بعد الرواد ،علي مجيد داود رسالة ماجستير البصرة / كلية الآداب،جامعة البصرة.

٥ - الاغتراب ريتشارد شاخت ترجمة وتحقيق كامل يوسف حسين دار شرقيات للنشروالتوزيع.

٦ - تاريخ الادب العربي ،العصرالعباسي الاول .د شوقي ضيف دار المعارف مصر.

٧ - تحول المثال ،دراسة لظاهرة الاغتراب في شعر المتنبي ،د. صالح زامل، المؤسسة العربية للدرات والنشر، ط١ ،.٢٠٠٣

٨ - تراسل الحواس في الشعر العربي القديم،د. عبد الرحمن الوصيفي، الهيئة السورية العامة للكتاب، دمشق،.٢٠٠٨

٩ - جماليات المعنى الشعري ،حليم بركات ،مجلة المستقبل العربي ٢٤،تموز ١٩٧٨ ص١٠٦ .

١٠ - ديوان ابي العتاهية.

١١ - ديوان بشار بن برد شرح وتحقيق محمد الطاهر بن عاشور،مطبعة لجنة التأليف والنشر القاهرة .١٩٥٧

١٣ - سوسيولوجيا الاغتراب،علي محمد اليوسف الدار العربية للموسوعات بيروت ،دت .

١٤ - شعر العميان د.نادرمصاروة،دار الكتب العلمية ،.٢٠٠٨

١٥ - الشعر في بغداد حتى نهاية القرن الثالث الهجري ،د. أحمد عبد الستار الجواري المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ط١ ،.٢٠٠٦

١٦ - الصورة في شعر بشار، د. عبد الفتاح صالح نافع ، دار الفكر للتوزيع والنشر عمان .١٩٨٣

١٧ - العزلة، الخطابي ، القاهرة .١٩٢٧

١٨ - غربة المثقف العربي.

١٩ - القيان والشعر في العصر العباسي، د. ليلى الحرمية الطوبى ،مؤسسة الانتشار العربي ط١ ٢٠٠١.

٢٠- مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الاولى ، د. حسين عطوان ، دار الجيل بيروت ط٢ ١٩٨ .

٢١- المنزلات ج٣ منزلة القراءة،د. طراد الكبيسي دار الشؤون الثقافية العامة،بغداد ١٩٩٧.